استمرار تقليد الشيوخ

فى أثناء ذلك كله ، وبينما كان البناء السياسى للأندلس يتصدع شيئاً فشيئاً أثناء فترة الصراع على الخلافة بين من ادعاها من أفراد البيت الأموى ومن أعقبوهم من بنى حمود - انهار البناء السياسى جملة، وضاعت الوحدة ، وتفرق أمر الجماعة ، وقام فى كل ناحية رئيس لا يملك من القوة ما يقيم به أمره فى ناحيته ، أو يحمى حدوده من جيرانه المسلمين ، أو خطر الزحف النصرانى .

وفى أثناء ذلك كله وقف أهل الأندلس مكشوفين للأخطار الخارجية التى تهددتهم من كل ناحية ، ومحرومين من أى نوع من الأمان على النفس والمال فى الداخل ، فقد عدمت بلاد الأندلس القوات اللازمة لحمايتها من الغزو والغارات ، وتلاشت إطارات النظام الداخلى ، وانعدم الأمان جملة ، وفى هذه الظروف المحزنة لم يعد للناس أمل إلا فى الله، ولا مفزع إلا إلى الايمان وأهله .

وفى أثناء ذلك أيضاً ، وبينما تسابق نفر من الفقهاء إلى الفوز بنصيب من الغنيمة أو مشاركة الفائز فى نصيبه منها ، وتعرضوا نتيجة لذلك لما لابد أن يتعرض له الداخل فى ميدان السياسة فى مثل ذلك العصر

المضطرب من خطوب ومصائب ، أو ما يضطر إليه من التخلى عن السمت الواجب لعالم الدين وسلوكه - فى خلال ذلك كله كان نفر من أهل الدين المتين والخلق القويم قد ابتعدوا عن تلك الفتنة الطاحنة ، ولاذوا بإيمانهم ، وأقبلوا على علمهم وعبادتهم قانعين بما تيسر لهم من الرزق ، مواصلين رسالة أهل العلم الصادقين من أسلافهم قبل أيام الناصر والمستنصر والمنصور ، منصرفين إلى الدرس والإقراء انصرافاً تامًّا حتى لكأن هذه المحنة كانت تدور فى بلد غير بلدهم ، واثقين من أن هذه الأزمة ستزول كما زال غيرها ، وأن الكلمة ستجتمع مرة أخرى ويعز الله الإسلام وأهله فى الأندلس من جديد كما أعزهم ووقاهم شر فتن أخرى قبل ذلك .

وهذا الحكم ينبغى أن يؤخذ على أنه مجرد رأى ؛ لأن المعلومات التى لدينا عن أهل العلم فى القرن الخامس الهجرى وما تلاه لا تخرج عن تلك التراجم المقتضبة التى تضمها المكتبة الأندلسية وإضافات هنا وهناك فى كتب الحوليات أو « مُغرب » ابن سعيد ، أو « المرقبة العليا » للنباهى ، أو « نفح الطيب » و « أزهار الرياض » للمقرى ، و « مدارك » القاضى عياض و «الديباج المذهب » لابن فرحون وما إليها ، وهذه الكتب على كثرتها ينقل بعضها عن بعض، فلا يكاد ينفرد واحد منها بشىء ، ومادتها كلها مقتضبة لا تعطى إلا صوراً تقريبية لشخصيات الشيوخ وحياتهم .

ومن أمثلة هؤلاء الشيوخ الذين انقطعوا للعلم وحافظوا على تقليد الشيوخ خلال القرن الرابع الهجرى أبو عمر الطَّلَمَنْكى (٣٤٠ ـ ٤٢٩ هـ/ ٩٥١ ـ ١٠٣٨م) وهو أحمد بن محمد عبد الله بن قَرْلُمان المعافرى ، أخذ العلم عن شيوخ عصره ورحل إلى المشرق رحلةَ دراسةٍ وسماعٍ طويلة ، وعاد إلى وطنه إماماً فى علوم القرآن والحديث ، وانقطع للتدريس فى جامع مُتعة بقرطبة ، وكان إماماً له حتى توفى[1] ، وهو شيخ عصره على الحقيقة .

ومن نظرائه وأهل طبقته فى العلم يونس بن عبد الله بن محمد بن مغيث (٣٣٨ ـ ٤٢٩ هـ/ ٩٤٩ ـ ١٠٢٧م) ، كان على علم غزير بالحديث والفقه ، وكان ذا ولع بأخبار الزهاد ، وله فى تراجمهم وفضائلهم كتب كثيرة ، ولولا أنه شغل بالوظائف فترات متقطعة من حياته لكان ندا للطلمنكى فى المشيخة .

وهذان الرجلان هما شيخا الجيل التالى كله : جيل أبى محمد مكى ابن أبى طالب المُقرى ، وأبى عبد الله محمد بن عائذ ، وأبى عمر يوسف ابن عبد البر ، وأبى عبد الله محمد بن عتّاب ، وأبى عمر أحمد بن محمد ابن يحيى بن الحذّاء ، وأبى محمد على بن حزم ، وأبى الوليد سليمان بن

---

(١) ابن بشكوال ، رقم ٩٠ ، ص ٤٧ ـ ٤٨ .

خطاب الباجى ، وغيرهم ممن سيعيدون جاه العلم والحديث فى الأندلس خلال القرن الخامس الهجرى كله .

وعاصر الطلمنكى ويونس بن عبد الله نفر كبير ممن ساروا على هذا الطريق وشغلوا حياتهم كلها بطلب العلم وتلقينه ، ومن أطرف أمثلتهم رجلان من أهل طليطلة درسا معاً ورحلا إلى المشرق وسمعا فيه وعادا إلى الأندلس ، واستقرا فى طليطلة للتدريس والإقراء معاً ، ويسميان لهذا بالصاحبين ، وهما أحمد بن محمد بن محمد بن عبيدة الأموى المعروف بابن ميمون[1] (٣٥٣ ـ ٤٠٠ هـ/ ٩٦٤ ـ ١٠٠٩م) وإبراهيم بن محمد ابن حسين بن شَنْظِير الأموى (٣٥٢ ـ ٤٠٢هـ / ٩٦٣ ـ ١٠١١ ـ ١٢م) . وقد تشابه الرجلان فى الخلق ومستوى العلم ، وامتاز ابن ميمون بعناية بالغة بضبط كتبه ، وكانت منتخبَة مضبوطة صحاحاً أمّهات لا يدع فيها شبهة مهملَة، وقلما يجوز عليه فيها خطأ ولا وهم ، وكان لايزال يتتبع ما يجده فى كتابه من السقط والخلل بزيادة فى اللفظ أو نقصان منه فيصلحه حيثما وجده ويعيده إلى الصواب . وكانت كتبه وكتب صاحبه إبراهيم بن محمد أصح كتب بطليطلة » . وأما ابن شنظير فامتاز بالوقار الكامل والهيبة فى مجلسه ، فكان « لا يُذكر فيه شىء من أمور الدنيا إلا العلم ،

---

(١) ابن بشكوال ، رقم ٢٠٢ ، ص ٩٦ .

وكان وقوراً مهيباً فى مجلسه ، لا يُقدِم أحد أن يتحدث فيه بين يديه ، ولا يضحك ، وكان الناس فى مجلسه سواء ،[1] .

وعن طريق أمثال هؤلاء استمرت تقاليد العلم والدرس قائمة فى نطاق ضيق بسبب الظروف التى شرحناها . ومن حسن الحظ أن هذا النفر الذى استطاع مقاومة إغراء الوظائف كانوا من خيرة أهل العلم فى تاريخ الأندلس كله ، فعرفوا كيف يكوِّنون جيلاً صالحاً من شباب العلماء، وقد دخل أبناء هذا الجيل ميدان العمل أثناء الفتنة الكبرى التى قوضت دعائم الوحدة السياسية الأندلسية أوائل القرن الخامس / الحادى عشر، فالتف الناس حولهم بعد أن يئسوا من أهل السياسة ، فصاروا شيوخ عصرهم حقاً ، لا فى الناحية العلمية فحسب بل فى الناحيتين السياسية والاجتماعية كذلك .

لهذا كان من الطبيعى أن نجد أجيال الشيوخ الذين ظهروا خلال القرن الخامس على إحساس كامل بالمسئولية التى حطت على أكتافهم، بسبب تلك الفتنة وانهيار النظام السياسى للأندلس ، وحاجة الناس إلى ما يثبت إيمانهم ويرفع قواهم المعنوية . وقد أخذ هذا الإحساس صوراً شتى بحسب مزاج الشيخ نفسه ونظرته إلى العلم الذى يحمله .

---

(١) نفس المصدر ، رقم ٢٠٢ ، ص ٩٦ .

فهناك من اندفعوا إلى ميدان السياسة وتصدوا للرياسة ، وخاضوا غمار الفتنة وتلبسوا بآثامها وشرورها ، كما حدث للقاضيين محمد بن إسماعيل بن عباد فى إشبيلية ، ويعيش بن محمد بن يعيش الأسدى (ت٤١٨ أو ٤١٩ هـ/ ١٠٢٧ أو ١٠٢٨م) فى طليطلة .

ومنهم من دخل ميدان السياسة معيناً لبعض أدعياء الخلافة على أمل إصلاح الحال ، ثم يئس من ذلك فانصرف إلى العلم ، كما هو الحال مع أبى محمد على بن حزم .

ومنهم من استمر فى هذا الطريق معاوناً لطلاب الرياسة ، فأصابه ما أصاب هؤلاء من خير وشر ولم ينتفعوا من جهودهم بشىء ، كما رأينا فى حالة أبى العباس أحمد بن ذكوان ، ويحيى بن عبد الرحمن بن وافد اللخمى قاضى الجماعة فى قرطبة من (سنة ٤٠١ إلى سنة ٤٠٤هـ) (١٠١٠ ـ ١٠١٣م) وقد لقى من المهانة ما لم يلقه قاض قبله ، ثم مات فى الحبس[١]، ومحمد بن الحسن النباهى قاضى مالقة من ٤٤٩ إلى ٤٥٦هـ (١٠٥٧ ـ ١٠٦٤م) وقد مات مقتولاً[٢] .

ومن الشيوخ من جرى فى طريق صغار الفقهاء من التماس الوظائف

---

(١) النباهي : المرقبة العليا ص ٨٨ ـ ٨٩ .

(٢) النباهى : ٩٣ .

والمكاسب ، وهؤلاء كثيرون جدا ، ومن أظهر أمثلتهم القاضى أبو الأصبغ عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدى (٤١٣ ـ ٤٨٦هـ / ١٠٢٢ ـ ١٠٩٣م) وكان عالماً جليلاً مشهوراً بكتابه « الأحكام الكبرى » ولكن مطامع السياسة غرته فلقى أذى كبيراً[١] ، ويحيى بن محمد بن حسين الغسانى المعروف بالقليعى (ت ٤٤٢هـ / ١٠٥٠ ـ ٥١م)[٢] وقد عرض الأمير عبد الله بن بُلُكّين صورة مؤسفة لتصرفاته وأعماله فى كتابه « التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة » ..

ومن هؤلاء العلماء من داخل الرؤساء واتصل بهم أملاً فى إصلاح حالهم ، أو فى التوفيق بينهم وبين جيرانهم ، وهؤلاء كانوا ذوى علم غزير نأى بهم عن التدنى والانسياق مع التيار ، ولكنه لم يعصمهم من بلاء السياسة من ناحية وسوء ظن الناس من ناحية أخرى ، ومن أمثلة هؤلاء أبو الوليد سليمان بن خلف الباجى (٤٠٣ ـ ٤٧٤هـ / ١٠١٢ ـ ١٠٨١م) وكان من أعظم من حفل بهم تاريخ الأندلس الفكرى من الرجال ، درس فى المشرق ثلاثة عشر عاماً ، وعاد ليجد وطنه فريسة الفوضى والاضطراب ، فندب نفسه للإصلاح بين الرؤساء ، وتحدث إلى بعضهم فى ذلك فلم يصغوا له ، واستبردوا نزعته ، كما يقول المقرى فى

---

(١) نفس المصدر : ص ٩٦ ـ ٩٧ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، رقم ١٣٥٦ .

نفح الطيب ، فانصرف إلى القضاء والتدريس والتأليف ، وكانت حلقة دروسه من أكبر حلقات الإسماع فى الأندلس ، وأثنى عليه تلميذه أبو على الصَّدَفى(١) ثناء عظيماً ، ولكن النباهى يقول ناقلاً عن « مدارك » القاضى عياض : « وكان يصحب الرؤساء ويقبل جوائزهم ، فكثر القائلون فيه من أجل ذلك ، وولى قضاء مواضع من الأندلس تصغر عن قدره ، فكان يبعث إليها خلفاء ، وربما قصدها بنفسه »(٢) ، وربما كان هذا هو الذى حط من قدر الباجى فى عصره وأساء ظنون الناس فيه ، وكانوا لا يرضون عمن يسير فى ركاب الرؤساء ويلتمس الرزق منهم ، ثم إنه تعرض لابن حزم وناظره فى ميورقة معتمداً على تأييد ابن رشيق المستبد بها ، وقد أساءت هذه المناظرات إلى الرجلين معاً .

وممن قارب أبا الوليد الباجى فى هذا الاتجاه من أهل الجيل التالى له أبو بكر محمد بن عبد الله بن أحمد العربى المعافرى (٤٦٨ ـ ٥٤٣ هـ / ١٠٧٥ ـ ١١٤٨م) الذى يصفه ابن بشكوال بأنه « ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها »(٣) ، وهو دون شك من أعاظم أهل العلم فى تاريخ الإسلام كله ، وكتبه الباقية إلى اليوم أصدق شاهد على علمه الواسع ،

---

(١) ابن بشكوال ، رقم ٤٤٩ ، ص ١٩٩ ـ ٢٠١ .

(٢) النباهى ، ص ٩٥ .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ، رقم ١١٨٠ .

ولكنه كان طموحاً إلى الجاه والمكانة ، فجرى فى أعقاب المرابطين ، وندب نفسه للدعوة لهم فى المشرق والوساطة بينهم وبين العباسيين ، ولم يكن عليه ضير فى ذلك ؛ لأن المرابطين كانوا جماعة باسلة مجاهدة جديرة بالتأييد من كل عالم ، ولكن أبا بكر بن العربى كان كثير الكلام قليل الحرص سريعاً إلى الحركة والعمل ، فكثر أعداؤه وحاسدوه والساعون به ، ولم يكن عليه من ذلك بأس طالما كان الأمر للمرابطين .

ولكن الموحدين قاموا على المرابطين وحاربوهم وحلوا محلهم ، وكان على أبى بكر بن العربى أن يؤيدهم ويقر بإمامة المهدى محمد بن تومرت . ولما كان ابن العربى قد لقى أبا حامد الغزالى وأخذ عنه وأطال الكلام عن ذلك ، فقد أراد الموحدون أن يستشهدوا به فى تأييد ما زعمه ابن تومرت من أنه لقى أبا حامد وأخذ عنه ، وسأله فى هذا عبد المؤمن ابن على أول خلفاء الموحدين فقال : إنه لم يره فى حلقة الغزالى ، ولكنه سمع عنه ، وهى عبارة أراد أن يتخلص بها من الحرج ؛ إن ابن تومرت لا يمكن أن يكون قد رأى أبا حامد ، ولكن هذا الرد أغضب الموحدين فعزلوه عن القضاء . وكان من الممكن أن يقضى بقية أيامه فى هدوء ، فقد كانت سِنُّهُ إذ ذاك تقارب الرابعة والسبعين ، ولكن تسرعه فى الحركة حفزه إلى الذهاب إلى مراكش مع نفر من أهل إشبيلية بلده ؛ ليعلنوا طاعتهم للموحدين ، فلما وصلوا مراكش احتجزهم الموحدون دون بقية

الوفود ، وظلوا هناك نحو العام ، ثم أطلق سراحهم ، فساروا حتى إذا قاربوا مدينة فاس توفى أبو بكر ، ويقال : إنه مات مسموماً(١) .

وكان ابن العربى تلميذاً لشيخ العصر أبى على الصدفى الذى سنتحدث عنه ، وخرج معه للجهاد واشترك فى معركة كُتَنْدة ، فاستشهد أبو على ، ونجا أبو بكر بن العربى « بحال من ترك الغطا والوطا » كما قال، وهذا يصور لنا الفرق بين رجل استحق بعلمه وإخلاصه مشيخة عصره ، وآخر لم يؤت من ذلك ما يمكنه من الوصول إلى الغاية .

ويشبه أبا بكر بن العربى من بعض الوجوه معاصرُه عياض بن موسى اليحصبى(٢) (٤٧٦ ـ ٥٤٤ هـ / ١٠٨٣ ـ ١١٤٩م) ، فقد كان من تلاميذ أبى على الصدفى ، وكان يأمل فى أن يصل إلى المشيخة بعده ، ولكنه لم يستطع . ولد عياض فى سبتة وإن كان أصله أندلسيًّا من بَسْطة

---

(١) قال ذلك النباهى فى المرقبة العليا ، ص٩٥ . وأوسع ما لدينا عن أبى بكر بن العربى هو ما أورده المقرى فى « أزهار الرياض » جـ٣ ، انظر الفهرس ، وانظر المقدمة الضافية التى كتبها محيى الدين بن الخطيب لكتاب « العواصم من القواصم » (القاهرة ١٣٧١) ، والجزء السادس من « نظم الجمان » لابن القطان ، بتحقيق الدكتور محمود على مكى ، تطوان ١٩٦٤ ، ص١٥ تعليق ٣ . وقد درست حياة ابن العربى ومؤلفاته فى « تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس » انظر المجلد الحادى عشر من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد (سنة ١٩٦٣) .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٩٧٢ .

(Baza) ، وكـان لا يقل علمـاً أو نشـاطاً فى التـأليف والتـعليم عن ابن العربى . تولى عياض القضاء فى سبتة وغرناطة ومالقة ، وفى هذا البلد جمع مالا ، وتمول بها أملاكاً ،(١) ، وفى أثناء ولايته القضاء فى غرناطة ضاق به المرابطون فعزلوه ، ثم قدمه إبراهيم بن تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين على قضاء سبتة مرة ثانية ، وهناك ، بادر بالمسابقة إلى الدخول فى نظام الموحدين ، والاعتصام بحبلهم المتين،(٢) كما يقول ابنه ، ثم انتهى أمره بأن مات خنقاً فى الغالب(٣) .

***

(١) النباهى : المرقبة العليا ، ص٩٥ .
(٢) المقرى : أزهار الرياض ، ٣/ ١٠-١١ .
(٣) النباهى ، ٩٥ .

الشيوخ فى عصور الا ضطراب

بقيت بعد ذلك بقية من الشيوخ وقفوا أنفسهم على العلم وعاشوا له وحده ، فلم يقبلوا من الوظائف إلا الصلاة والخطبة فى المساجد إذا دعوا إلى ذلك ، وربما تولوا القضاء لفترات قصيرة مرغمين ، وهؤلاء هم الذين اعتبرهم الناس شيوخ هذا العصر الحافل بالاضطرابات والفتن ، واعتصم بهم أهل الأندلس وتبركوا بهم ، وكان لوجودهم فى نواحيهم أبعد الأثر فى تثبيت القلوب والمحافظة على ما بقى من إطارات المجتمع الإسلامى فى نواحيهم .

والمثل الأكبر لهؤلاء خلال النصف الثانى من القرن الخامس وأوائل السادس الهجريين هما أبو على بن سكرة الصدفى ، وأبو الوليد بن رشد الجد : فأما الصدفى فهو حسين بن محمد بن فيره بن حيون بن سكرة الصدفى (٤٥٤ ـ ٥١٤ هـ/ ١٠٦٢ ـ ١١٢٠م) وكان من أهل سرقسطة ، وفيها أخذ عن أبى الوليد الباجى ، ثم سكن مرسية وطاف بنواحى شرق الأندلس ، وخاصة بلنسية حيث سمع من شيخ المحدثين فى ذلك العصر أبى العباس أحمد بن أنس العذرى ، ثم رحل إلى المشرق رحلة سماع وحجٍّ طويلة (٤٨١ ـ ٤٩٠هـ / ١٠٨٨ ـ ١٠٩٦م) وعاد إلى الأندلس بعلم غزير ، وأقام بمرسية منصرفاً إلى العلم وإقراء الحديث خاصة . قال

المقرى : « وكان عالماً بالحديث وطرقه ، عارفاً بعلله وأسماء رجاله ونَقَلته، بصيراً بالمعدِّلين والمجرِّحين ، وكان حسن الخط جيد الضبط ، وكتب بيده علماً كثيراً وقيده ، وكان حافظاً لمصنفات الحديث ، قائماً عليها ذاكراً لمتونها وأساليبها ورواتها »(١) ، واجتهد فى أثناء ذلك فى خدمة الناس ، قال ابن عساكر : « ورفعته ملوك أوانه وشفعته فى مطالب إخوانه ، فأوسعته رَعْياً وحَسُنت فيه رأياً ، ومن أبنائهم من جعل يقصده لسماع مسنده »(٢) وقد أخذ ابن عساكر هذا عن تكملة ابن الأبار .

ثم عرض عليه والى مرسية إبراهيم بن يوسف بن تاشفين أن يتولى القضاء فرفض ، وأمره الأمير فتولاه أياماً ، ثم اختفى هارباً بنفسه إلى المرية دون أن يُعفَى ، وتبعه طلابه فلم يجدوه ، وطال انتظارهم إياه حتى نفدت مؤن بعضهم ، فأخذوا يرحلون ، وانتظر البعض الآخر لعله يظهر ، ومن بين هؤلاء كان عياض بن موسى ، وبلغ من حرص أبى على الصدفى على التعليم - وهو فى تلك الحال - أن أنفذ بعض كتبه سراً إلى عياض ، ثم وصل كتاب قاضى الجماعة أبى محمد بن منصور بإعفائه فظهر .

---

(١) أزهار الرياض للمقرى ، ١٥٢/٣ .

(٢) نفس المصدر .

وعاد إلى مرسية وجلس للإقراء ، ومما يؤثر عنه بهذه المناسبة ما حكاه ابن القاضى عياض ، قال : « حكى أبى أبو الفضل عياض - رحمه الله - أن القاضى أبا على الصدفى قال له : لولا أن الله يسّر خروجى بلطفه لكنت عزمت على أن أشعرك بموضع يقع عليه الاختيار من بلاد الأندلس لا يؤبه لكونى فيه ، فتدخل إليه ، وأخرج مختفياً إليه بأصولى ، فتجد ما ترغب ، لما كان فى نفسى من تعطيل رحلتك وإخفاق رغبتك»(١) .

وفى هذه الأثناء كانت الأحوال فى شرق الأندلس تسير من سئ إلى أسوأ ، فقد سقطت سرقسطة فى يد ألفونسو المحارب ملك أرغون سنة (٥١٢ هـ/ ١١١٨م) وانكشفت الجبهة الإسلامية فى هذه الناحية ، وانفتح الطريق أمام قوات أرغون للاستيلاء على بلاد أخرى ، وكانت سرقسطة بلد أبى على ومسقط رأسه ، فأثار نفسه سقوطها ، وقرر الخروج إلى الجهاد لإيقاف التقدم النصرانى ، وكانت سن أبى على إذ ذاك فوق الستين ، ولكن ذلك لم يصرفه عن القيام بهذا الواجب المقدس ، فجمع من أراد الخروج من تلاميذه وأهل مرسية ، واستنهض همم الحامية المرابطية وأميرها ، فخرج جيش إسلامى كبير متجهاً إلى الشمال يتقدمه أبو على الصدفى ونفر من أصحابه منهم أبو عبد الله بن الفرج ، وأبو بكر بن العربى ، وصحبهم عدد كبير من المطوعة يزيدون على عشرين ألفاً .

(١) المقرى : أزهار الرياض ، ٩/٣ .

ولا يعلل خروج هذا العدد الكبير من المطوعة إلا بتأثير أبى على الصدفى فيمن حوله من الناس فى مرسية ونواحيها . حقيقة كان نفر كبير من المطوعة يصاحب كل جيش رسمى ، ولكن عددهم هذه المرة زاد كثيراً على عدة الجيش المرابطى نفسه ، ثم إن المطوعة وحدهم هم الذين ثبتوا فى الميدان ، واستشهد فيه منهم عدد عظيم يقدرهم مؤرخونا بعشرين ألفاً ، فى حين أن خسائر الجيش المرابطى نفسه كانت طفيفة جداً بحيث يمكن أن يقال : إن المطوعة وشيخهم أبا على الصدفى هم الذين صمدوا للعدو .

قاد هذه الحملة الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين والى شرق الأندلس لأخيه أمير المسلمين على بن يوسف ، وكانت مرسية مركزه . وقد نهض بها على أمل استرجاع سرقسطة ، ولم يكد ألفونسو المحارب يسمع بخروج الجيش المرابطى حتى سار للقائه فى نفر كبير من قواده ورجاله ، ووقع اللقاء عند مدينة كُتَنْدة Cotanda على مقربة من دَرُوقة Daroca (فى مديرية تيروال الحالية ، على بعد ٨٦ كيلو متراً من مدينة تيروال) وانجلى عن هزيمة كبيرة للمرابطين ، ، قتل فيها من المطوعة نحو من ٢٠ ألفاً ، ولم يقتل فيها من العسكر - يعنى الجند - أحد . وحكى غيرهم أن العسكر انصرف مفلولاً إلى بلنسية فى الموفى عشرين من ربيع

الأول ، (سنة ٥١٤هـ / يونيو ١١٢٠م)[١] .

ومعنى ذلك أن أبا على الصدفى الذى هرب من ولاية القضاء لم يتردد فى الخروج للجهاد للدفاع عن بلاد الإسلام وهو قد ناهز الستين من العمر ، وصحبته ألوف من المجاهدين (المطوعة) ونفر من تلاميذه حسبة لله تعالى فاستشهد ونفر من الشيوخ وألوف من أولئك المتحمسين المساكين . وعودة الجيش المرابطى سالماً تدل على أنه لم يشترك اشتراكاً فعلياً فى القتال ، وإنما ترك أبا على ومن معه يصلون نار المعركة .

أما ابن رشد الجد : فهو أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد (٤٥٠ ـ ٥٢٠ هـ/ ١٠٥٨ ـ ١١٢٦م) ومكانه فى تاريخ الفكر الأندلسى معروف ، والكثير من كتبه باق بأيدى الناس تدل على علمه الواسع[٢] .

ويهمنا من سيرته هنا أنه تقلد القضاء لفترة قصيرة ، ثم استعفى منه فأعفى ، وانصرف بعد ذلك إلى ، نشر كتبه وتواليفه ومسائله وتصانيفه ، وكان الناس يلجئون إليه ويعولون فى مهماتهم عليه ، وكان حسن الخلق،

---

(١) ابن الأبار : المعجم فى أصحاب أبى على الصدفى ، ص٧ . وهناك خلاف فى تحديد التاريخ الدقيق للمعركة ، انظر :

F. CODERA, Decadencia y desaparicion de los Almoravides en Espana. Zaragoza, 1899, 262-267 .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، رقم ١١٥٤ .

سهل اللقاء ، كثير النفع لخاصته وأصحابه ، جميل العشرة لهم ، حافظاً لعهدهم ، كثير البر بهم » . أى أنه كان ملاذ الناس وموئلهم فى تلك السنين العصيبة التى شهدت اشتداد الضغط النصرانى على الأندلس وما صحب ذلك من اضطراب وقلق متزايدين فى ذلك البلد المهيض الجناح .

ويعطينا النباهى دليلاً ملموساً على تصدى ابن رشد لخدمة الجماعة الأندلسية ، وذلك حيث يقول : « وقد كان أيام حياته توجّه إلى المغرب ، إثر الكائنة التى كانت بين المسلمين والنصارى بالموضع المعروف بالدّنيسول(١) ، وذلك منتصف شهر صفر عام ٥٢٠هـ (فبراير ١١٢٦م) فاستخار القاضى أبو الوليد فى النهوض إلى المغرب مبيّناً على أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين بالجزيرة عليه(٢) ، فوصل إليه ،

---

(١) الدنيسول هى Anzuul بقرب أليسانة Lucena فى مديرية غرناطة . والإشارة هنا إلى حملة ألفونسو المحارب على البلاد الأندلسية من أواخر شعبان ٥١٩ هـ/ أوائل سبتمبر ١١٢٥م ، إلى أواخر صفر ٥٢٠ هـ واختراقه إياها من طرف لطرف دون أن يلقى مقاومة تذكر ، وعند الدنيسول هذه أنزل بالمسلمين هزيمة كبيرة .
انظر : الحلل الموشية ص٧٥ ـ ٨٠ ، والإحاطة بتحقيق محمد عبد الله عنان ١/١١٤ ـ ١٢٠ ، وأبحاث دوزى ١/٣٤٨ ـ ٣٦٣ ، وبحث الدكتور محمود على مكى « وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين » ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد مجلد ٧، ٨ (١٩٥٩ ـ ١٩٦٠) ص١٢٤ ـ ١٢٥ .

(٢) كذا فى الأصل المطبوع ، والعبارة غير قويمة .

فلقيه أكرم لقاء ، وبقى عنده أبر بقاء ، حتى استوعب فى مجالس عدة إيراد ما أزعجه إليه ، وتبين ما أوفده عليه ، فاعتقد ما قدره لديه ، وانفصل عنه وعاد إلى قرطبة ، فوصلها فى جمادى الأولى من السنة المذكورة ، وعلى أثر ذلك أصابته العلة التى أضجعته ، إلى أن أفضت به إلى قضاء نحبه .. »(١) .

أى أن أبا الوليد محمد بن أحمد بن رشد (الجد) كان أشبه براع لأهل قرطبة وما جاورها من موسطة الأندلس يلتفون حوله ويلجئون إليه ، وينشط هو لما فيه صالحهم ، وينوب عنهم فى الحديث إلى السلطات القائمة ، ويشير على أصحابها بالرأى ، وقد استمر قائماً بذلك حتى قرب وفاته . أى أنه كان يقوم فى ناحيته بنفس المهمة التى اضطلع بها أبو على الصدفى فى شرق الأندلس .

ولم ينفرد ابن رشد وأبو على الصدفى بالقيام بهذا الدور فى ذلك العصر ، بل كان هناك آخرون أظهرهم أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم بن بِيطِير التُّجيبى المعروف بابن الحاج (٤٥٨ ـ ٥٢٩ هـ / ١٠٦٦ ـ ١٠٣٤م) وكان من تلاميذ أبى على الصدفى ، وكان من جلة الفقهاء وكبار العلماء ، معدوداً فى المحدثين والأدباء ، بصيراً بالفتيا ،

---

(١) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ، ص٩٩ .

رأساً فى الشورى ، وكانت الفتيا فى وقته تدور عليه ، لمعرفته وثقته وديانته ، وكان معنيًّا بالحديث والآثار ، جامعاً لها مقيداً لما أشكل من معانيها ،(١) ولهذه الفضائل كلها صارت إليه رياسة الشيوخ بعد موت ابن رشد ، وقد قتل ابن الحاج فى مسجد قرطبة ، ظلما ، كما تقول المراجع ، وربما كان هذا لأسباب سياسية ؛ لأن المراجع لا تذكر هذا الوصف إلا إذا كان القاتل من رجال الدولة ، ومن الممكن أن يكون مقتل هذا الشيخ الجليل نتيجة تدخله للدفاع عن أهل بلده من مظالم الحكام .

وقد ورث أولئك الرجال هذا التقليد من رجال مثل جُماهِر بن عبد الرحمن بن جماهر الحجرى من أهل طليطلة (توفى ٤٤٦ هـ/ ١٠٥٤ ـ ١٠٥٥م) وكان عالماً جليلاً ارتفع به علمه إلى مرتبة الولاية ، قال ابن بشكوال : ، وكان حسن الخلق كثير التواضع ، وتُقرأ عليه كتب الزهد والرقائق ، وكانت العامة تجله وتعظمه ، ولما خُرج بنعشه ازدحم عليه الناس حتى صار النعش فى أكفهم إلى أن وصل إلى قبره مكفناً فى حُبرَة، ونادى مناد بين يديه : لا ينال الشفاعة إلا من أحب السنة والجماعة،(٢) . وكان جماهر معاصراً لابن شنظير وابن ميمون ، وكان هذا الأخير زاهداً مرابطاً فى حصن الفهمين من حصون طليطلة .

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، رقم ١١٦٢ ، وأزهار الرياض ، للمقرى ٣/٦١ ـ ٦٢ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، رقم ١٤١٦ ، ص٤٩٢ ـ ٤٩٨ .

الشيوخ من ٥٥٠ إلى ٧٥٠هـ (١١٥٥ - ١٣٤٩م)

الحديث والسيرة

وعن جيل أبى على الصدفى وابن رشد الجد وابن الحاج انتقلت هذه الرسالة إلى جيل آخر من أهل العلم والإيمان والزهد والانصراف إلى خدمة الجماعة الإسلامية فى الأندلس ، وكانت قد صارت كاليتيم لا يجد من يرعاه ، والظاهرة المميزة لشيوخ هذا العصر - النصف الثانى من القرن السادس الهجرى - هى الانصراف إلى القرآن والحديث وحدهما والاجتهاد فى دراستهما اجتهاداً يدل على أن الشيوخ كانوا يجدون فيهما عزاء عما صارت إليه البلاد من سوء حال ، فكانت « السنة والجماعة » عندهم عزاء وأملاً وخيطاً يربطهم إلى أجيال الإسلام الأولى ، ولا شك أن هذا الإحساس النفسى هو الذى دفع الناس إلى الالتفاف حولهم والاستماع إلى ما كانوا يروون من الأحاديث مسندة من رجل لرجل حتى تصل إليهم من الرسول ﷺ .

يتجلى هذا فى سيرة رجل مثل عبد الله بن موسى بن سليمان بن على بن اشْكُرْتَه الأزدى المعروف بابن برطلة (٤٨١ - ٥٦٣ هـ/ ١٠٨٨ - ١١٦٨م) وكان تلميذ أبى على الصدفى وزوج ابنته ، وقد رحل إلى

المشرق رحلة سماع طويلة ، وحكى أن قاضى البرلس بمصر توضأ مرة وصلى ، ثم سمع قائلاً يقول :

لولا أناس لهم سَرْدٌ يصومونا وآخرون لهم وِرد يقومونا
لزُلزلت أرضُكم من تحتكم سَحَراً لأنكم قومُ سوءٍ لا تبالونا

فتلفت حوله فلم يجد أحداً ، فعلم أن ذلك زاجر من الله تعالى . وهذه الحكاية أشبه بالرمز إلى تفكير ابن برطلة نفسه ، وقد قضى عمره كله يقرأ الحديث فى مرسية .

كما يتجلى فى سيرة عبد الله بن محمد بن على بن ذى النون الحجرى (٥١٢ ـ ٥٩٢ هـ / ١١١٨ ـ ١١٩٦م) وكان آية فى الحفظ والعلم والزهد فى الوظائف والاجتهاد فى الإقراء ، وقد ظل فى بلده المرية حتى خرجت من بلاد الإسلام ، فانتقل إلى مرسية فضاقت حاله بها ، فعبر البحر إلى سبتة ، وتوفى فى المغرب ، ومن شيوخه أبو الحسن شريح بن محمد ، قال ابن الأبار : « وكان شريح ـ رحمه الله ـ بطول العمر قد انفرد بعلو الإسناد فيه لسماعه إياه من أبيه وأبى عبد الله بن منظور عن أبى ذر، فكان الناس يرحلون إليه بسببه ، وكان قد عين لقراءته شهر رمضان، فيكثر الازدحام عليه فى هذا الشهر من كل سنة ، ويتواعد أهل الأقطار المتباعدة للاجتماع فيه عنده »(١) .

---

(١) ابن الأبار : التكملة رقم ١٤١٦ ، ص ٤٩٢ ـ ٤٩٨ .

ويتجلى كذلك فى سير عبد الله بن سليمان بن داوود بن حوط الله الأنصارى الحارثى (٥٤٩ ـ ٦١٢ هـ / ١١٦٤ ـ ١٢٢٥ ، ٢٦) وأصله من أنْدَه وهو تلميذ أبى القاسم خلف بن بشكوال ، وأبى القاسم بن حبيش ، وأبى الوليد بن رشد ، وأبى القاسم السهيلى ، وكان من أعلم أهل زمانه بالحديث خاصة ، وامتحن بالتجول ، فذهبت أصوله وضاعت كتبه فى أسفاره ، وكان خطيباً كاتباً وشاعراً أيضاً، وقد خدم الموحدين وأدب أولادهم وتولى لهم القضاء فى قرطبة وإشبيلية وسبتة وسلا ، وكانت فيه صلابة ، ربما أوقعته فيما يكره ،(١) وتوفى فى غرناطة ودفن فى مالقة .

وهذا التجول المتصل مظهر من مظاهر القلق الذى شمل نفس هذا العالم الكبير ، وكان أخوه أبو سليمان داوود بن سليمان بن حوط الله (٥٥٢ ـ ٦٢١هـ / ١١٥٧ ـ ١٢٢٤م) أهدأ منه نفساً وأبعد منه صيتاً ، قال ابن الأبار: ، وهو وأخوه أبو محمد كانا أوسع أهل الأندلس رواية فى وقتهما ، لا ينازعان فى ذلك ولايدافعان مع الجلالة والعدالة ،(٢) ، ولكنهما معاً لا يقارنان فى هذا المجال بابن بشكوال : خلف بن عبد الملك ابن مسعود (٤٩٠ ـ ٥٧٧ هـ/ ١٠٩٧ ـ ١١٨١ ـ ٨٢ م) المؤرخ المشهور ، وشيوخه وتلاميذه لا يحصون كثرة ، وقد قضى معظم عمره فى التأليف

---

(١) نفس المصدر ، رقم ١٤٣٣ ، ص٥٠٦ ـ ٥٠٩ .

(٢) نفس المصدر ، رقم ٢٠٥ ، ص٦٣ ـ ٦٥ .

وإسماع العلم ،وهذه الصناعة كانت بضاعته ،(١) وهو أستاذ أبى بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة (٥٠٢ ـ ٥٧٥ هـ/ ١١٠٨ ـ١١٧٩ م) الذى أنفق عمره كله فى دراسة الحديث وتدريسه وفى التأليف ، وشيوخه نيف ومائة رجل ، احتوى على أسمائهم برنامج له ضخم فى غاية الاحتفال والإفادة لا يعلم لأحد من طبقته مثله ،(٢) .

وهكذا ، رغم سوء الأحوال والاضمحلال السياسى المستمر فى الأندلس، ظل أولئك الرجال عاكفين على الدراسة والسماع وتواتر العلم والإقراء والتأليف ، يقطعون المسافات الطويلة من بلد لبلد لسماع حديث ، أو انتساخ كتاب ، أو مراجعة أصل صابرين ثابتين أبداً ، كأنهم كانوا يعيشون فى بلد بلغ الاستقرار فيه مداه ، أو كأن الأخطار لا تحوم حولهم صباح مساء ، ولا شك أن ثباتهم هذا كان له أبعد الأثر فى نفوس الناس من حولهم ، إن الأمل الحقيقى فى الاحتفاظ بالأندلس كان قد تزعزع بصورة محزنة أثناء فترة الشغور والفتنة بين المرابطين والموحدين ، ولم تستطع دولة الموحدين أن تسد مسد المرابطين فى الحماية والجهاد ؛ لأن قواها ـ حتى أيام أبى يوسف يعقوب المنصور ـ كانت لا تكاد تكفى للمحافظة على نواحى امبراطوريتهم الشاسعة فى المغرب ، وكان الأندلس

---

(١) نفس المصدر ، رقم ١٧٩ ، ص٥٤ ـ ٧٨ .

(٢) ابن الأبار : التكملة ، رقم ٧٨٠ ، ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢ .

عبئاً ثقيلاً عليهم ، وكان وُلاتهم فيه أشبه بمن يصفى تركة ، وخاصة بعد معركة العقاب .

وعندما أراد محمد الناصر رابع خلفاء الموحدين أن يخفف عن نفسه بتقسيم الامبراطورية قسمين كان حرصه على الجانب الشرقى من أملاكه المغربية أكبر من حرصه على الأندلس ، فأقام أبا محمد عبد الواحد بن أبى حفص على ذلك الجانب الشرقى من أملاكه المغربية بدلاً من أن يقيمه على الأندلس ، وكان هذا هو الأحكم والأجدى عليه ، فإن ذلك الفرع الحفصى من دولة الموحدين كان الأقوى والأدوم ، ولا شك أن أبا محمد عبد الواحد بن أبى حفص كان يستطيع تجنيب الأندلس الكثير من المتاعب التى قاساها بعد موت محمد الناصر رابع خلفاء الموحدين وتطلع أمرائهم فى الأندلس إلى الخلافة وانصرافهم عن شئون ولاياتهم ، بل التخلى عن الكثير منها دون حرب أو بعد مدافعة يسيرة ، وخاصة بعد أن اتخذ أبو العلا إدريس بن أبى يوسف يعقوب المنصور قراره المحزن بترك الأندلس والتوجه لطلب الخلافة فى المغرب ، فانهارت جبهة الوادى الكبير فى الأندلس وعمّ طوفان الاندفاع النصرانى فلم يتوقف إلا عند حدود مملكة غرناطة .

فى أثناء ذلك كله ـ والقواعد الأندلسية الكبرى تتساقط ـ كان أولئك العلماء ماضين فى طريقهم على النحو الذى وصفناه ، نعم ، هاجر الكثيرون منهم إلى المغرب أو إلى المشرق ، ولكن الذين ظلوا فى وطنهم

كانوا أكثر وأصلح وأكثر علما وإيماناً ، وبفضلهم ثبتت قلوب الألوف وقرُّوا فى مواضعهم ، وظلت شعلة الأمل فى نفوسهم ، وبلغ من ثبات هذا النفر من الشيوخ وتمسكهم بوطنهم الأندلسى وأهله أن الواحد منهم كان يظل يقرئ فى بلده حتى يسقط ، فينتقل إلى أقرب بلد إليه ويواصل القراءة حتى يسقط ، فينتقل إلى الذى يليه ، وهكذا .

يلاحظ ذلك فى حياة رجل مثل ابن حُبيش : عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن ، وهو من أهل شارقة من عمل بلنسية ، ولكنه ولد فى المرية سنة (٥٠٤هـ / ١١١٠م) ثم طوف بالأندلس يدرس ويقرأ، وعاد إلى المرية وظل يدرِّس فيها حتى تغلب الروم عليها سنة (٥٤٢ هـ/ ١١٤٧ ـ ٤٨م)فانتقل إلى مرسية ثم إلى جزيرة شُقْر فولى الصلاة بها والخطبة والأحكام، ثم نقل إلى مرسية سنة (٥٥٦ هـ/ ١١٦١م) فتولى قضاءها فى السنة التالية ، وظل فى هذه الوظيفة حتى وفاته فى صفر (٥٨٤ هـ/ ١١٨٨م) . قال ابن الأبار : « وكان آخر أئمة المحدثين بالمغرب ، والمسلم له فى حفظ أغربة الحديث ولغات العرب وتواريخها ورجالها وأيامها ، لم يكن أحد يجاريه فى معرفة رجال الحديث وأخبارهم ومولدهم ووفياتهم »[1] . ولم يؤلف ابن حبيش كثيراً ، ولكن ابن الأبار يذكر له كتاباً فى المغازى « فى مجلدات كتبه الناس » .

---

(١) ابن الأبار : التكملة ، رقم ١٦١٧ ، ص٥٧٤ .

وهذا الاتجاه نحو السيرة والمغازى وأخبار الصحاب ظاهرة من ظواهر الاتجاه العلمى فى ذلك العصر ، فقد ألف ابن العربى كتابه «العواصم من القواصم » ، وكتب القاضى عياض كتاب « الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى » ، ثم ألف أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله السهيلى (٥٠٩ ـ ٥٨١ هـ/ ١١١٥ ـ ١١٨٥م) معاصر ابن حبيش شرحه المعروف باسم « الروض الأنف » لسيرة ابن إسحاق ، وكتب الكلاعى تلميذه كتابه « الاكتفا فى مغازى المصطفى والثلاثة الخلفا » ، وهو اتجاه سهل التفسير من الناحية النفسية ، فإن أولئك العلماء الذين تعلقت آمالهم فى عصر اليأس هذا بالقرآن والحديث اتجهت نفوسهم أثناء الحروب المتوالية نحو سيرة الرسول ﷺ ومغازيه يستلهمون منها القوة والعزاء ، وقد بلغ من اندماجهم فى المغازى أن خرج الكثيرون منهم للجهاد ولقوا الشهادة .

ومما هو جدير بالملاحظة أن عصراً من عصور الأندلس لم يحفل بالعلماء والمحدثين كما حفل القرن الممتد من منتصف السادس إلى منتصف السابع الهجريين ، فقد أحصى ابن الفرضى فى كتابه عن علماء الأندلس خلال القرون الأربعة الأولى ١٧٦٦ رجلاً هم الذين أثبتهم فى تاريخ العلماء ، وأحصى ابن بشكوال العلماء من أول القرن الخامس إلى منتصف السادس ، فذكر فى صلته ١٤٤٠ اسماً ، أما ابن الأبار فقد أورد فى تكملته نحو ٢٥٠٠ معظمهم عاش من منتصف القرن السادس إلى

منتصف السابع ، هذا على الرغم من أن الأندلس الذى عرفه ابن الأبار لم يزد فى المساحة عن ثلث الأندلس الذى أرخ ابن الفرضى لعلمائه ، مما يدل على أن هذا الثلث الباقى كان يزخر بالعلم والعلماء .

ونختم هذا البحث عن الشيوخ - ولابد أن نقف به عند نقطة ما من تاريخ الأندلس الطويل - بذكر رجل يعتبر رمزاً على شيوخ العصر فى الأندلس ، ومثالاً من أمثلة التفانى فى رسالة العلم والحديث والائتساء بسيرة المصطفى ﷺ ، خلال فترة الضياع من تلاشى سلطان الموحدين إلى قيام دولة بنى نصر ، وذلك هو أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعى البلنسى ، وهو تلميذ ابن رشد الحفيد وأبى القاسم بن حبيش ، ومعاصر أبى بكر بن الجد آخر الكبراء من بيت بنى الجد ورأس الشيوخ فى غرب الأندلس فى ذلك العصر .

أنفق الكلاعى شبابه كله فى سماع الشيوخ فى شتى نواحى الأندلس حتى بلغ الإمامة فى صناعة الحديث ، مع الاستبحار فى الأدب، والاشتهار بالبلاغة ، والتمكن من الخطابة ، وإنشاء الرسائل وقرض الشعر، وهو كان المتكلم عن الملوك فى مجالسهم والمنبئ عنهم لما يريدون على المنبر فى المحافل ،(١) .

---

(١) ابن الأبار : التكملة ، رقم ١٩٩١ . وقد نشر هنرى ماسيه HENRI MASSÉ الجزء الأول من كتاب « الاكتفا فى مغازى المصطفى والثلاثة الخلفا » فى الجزائر سنة ١٩٣١ ، وصدّر له بإيراد معظم ما كتبه أصحاب معاجم التراجم عن الكلاعى ، وعلى هذه التراجم معولنا هنا .

وهى عبارة غريبة من ابن الأبار ، وهو بلنسى معاصر لأبى الربيع سالم الكلاعى ، فلم يكن فى بلنسية إذ ذاك ملوك ولا أشباه ملوك ، وإنما كان يتولى الأمر هناك أمير من أسوأ أمراء الموحدين هو أبو عبد الله البياسى ، ثم خلفه حاكم صغير هو أبو جُميل زيان بن أبى الحملات مُدافع ابن مردنيش آخر من تولى أمراً من سلالة محمد بن سعد بن مردنيش ، وكان ابن الأبار كاتباً للاثنين ، ويمكن تفسير هذه العبارة بأن الكلاعى كان الواسطة بين أهل بلنسية وهذا الطراز من الحكام .

ولا شك أن الكلاعى كان أعظم من الحكام مكانة عند البلنسيين بفضل علمه وشخصيته وانصرافه لخدمة أهل بلده فى تلك الأيام العسيرة، فقد كان «خايمه الأول المعروف بالفاتح» يتقدم شيئاً فشيئاً فى أراضى بلنسية ويستولى على مواقعها واحداً بعد واحد .

وفى أثناء ذلك كان أبو الربيع سالم الكلاعى يلقى دروسه فى الجامع ويتولى الصلاة والخطبة والقضاء ، ويجد مع ذلك وقتاً للتأليف الكثير ، وتآليفه تدور حول الرسول ﷺ وحديثه وصحابته ، ويهمنا منها هنا كتابه «الاكتفا فى مغازى المصطفى والثلاثة الخلفا» الذى وصل إلينا ، والكتاب فى حقيقته تجريد لسيرة ابن إسحاق من الشروح اللغوية وسلاسل الأنساب والإسناد والأشعار ، والكلاعى يقرر ذلك فى خطبة الكتاب ، وبطبيعة الحال لم يؤلف الكلاعى هذا الكتاب لأمثاله من العلماء ، فهؤلاء كانوا

شديدى الحرص على ما جرد الكتاب منه ، فلم يبق إلا أنه ألفه لعامة الناس حتى يستطيعوا الاطلاع على السيرة وقراءة أخبار مغازى الرسول ﷺ واستيحاء ما فيها من العبر ، والانتفاع بدروسها فى رفع معنوياتها . ومن مؤلفاته الأخرى كتاب عن الصحابة أوسع بكثير من كتاب أبى عمر ابن عبد البر ، وهذا أيضاً كان دليلاً على اتجاه الرجل نفسياً نحو الصحابة وسيرهم وما فيهامن العبر والدروس .

وفى هذه الأثناء كان « خايمه الأول » قد صار على أميال من بلنسية، وضرب معسكره على تل على سبعة أميال شمالها يسمى البويش El-Buig ، وكانت عليه قرية تسمى أنِيشَة ، ومن هناك أخذ يغاور بلنسية ويضيق على أهلها ، فقرر البلنسيون الخروج إلى العدو لإزالته من هذا الموضع ، ولا يمكن أن يكون أبو جميل زيان بن مردنيش صاحب هذا القرار ؛ لأنه فى نفس الوقت كان يفاوض « دون خايمه » ليستجلب رضاه، بل هو بعد أن سقطت بلنسية وسار إلى دانية أخذ يفاوض ملك قشتالة ؛ ليتنازل له عنها فى مقابل ميورقة .

فقرار الخروج لحرب الأرغونيين إذن كان مصدره أهل بلنسية وشيخهم أبا الربيع سالم الكلاعى ، وقد خرج أبو الربيع فى مقدمة الصفوف إلى معركة أنيشة ، وحدث فيها ما حدث فى كتندة : استبسل المطوعة والشيوخ ، واستشهد منهم الألوف من بينهم أبو الربيع سليمان

نفسه ، قال ابن الخطيب : « ولم يزل متقدماً أمام الصفوف زحفاً إلى الكفار ومقبلاً على العدو ، وينادى بالمنهزمين : أمن الجنة تفرون ! حتى قتل صابراً محتسباً غداة يوم الخميس لست بقين من ذى حجة سنة ٦٣٤ هـ » .

على هذه الصورة ختمت حياة واحد من أمجد شيوخ العصر فى الأندلس ، رجل جمع كل الخصائص المميزة لهذا الطراز من أعلام الأندلسيين ، وهى العلم الواسع ، والانصراف إلى القرآن والحديث ، والتفانى فى خدمة العلم وأهله ، والتصدى للدفاع عن مصير الجماعة الإسلامية ، وسلامة الخلق ، والشهامة ، والاستعداد لبذل النفس فى سبيل الإسلام ، حتى يتطابق عمل العالم مع علمه ، ويكون مثالاً حيًّا لما عاش له ودعا إليه ولقنه للناس !

تم بحمد الله